وتستمر المسيرة

وزارة الثقافة

سرد وشعر 2021
سلسلة سرد وشعر
من منشورات وزارة الثقافة

شعر

عماد مدانات

عُزْلَةٌ وَأَنْفاسٌ أُخْرَى

عُزْلَةٌ وَأَنْفاسٌ أُخْرَى

- **عُزْلَةٌ وَأَنْفاسٌ أُخْرَى**
- **شعر**
- **المؤلف: عماد جريس مدانات**
- **الناشر: وزارة الثقافة**

عمان ـ الأردن
شارع وصفي التل
ص . ب 6140 ـ عمّان
تلفون : 5699054/5696218
فاكس : 5696598
بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2021/5/2655

819.9
مدانات، عماد
عزلةٌ وأنفاسٌ أُخرى/ عماد جريس مدانات.- عمان: وزارة الثقافة، 2021.
(96) ص
ر.أ. 2021/5/2655
الواصفات:/ النصوص الأدبية/ / الخواطر الأدبية/ / الأدب العربي/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

- **الإخراج الفني: نسرين العجو.**

رقم الردمك (978 - 9957 - 94 - 752 -1)

- **جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.**

- All rights reserved. No part of this book may be reproduced. stored in a retrieval system. or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

عُزْلَةٌ وَأَنْفاسٌ أُخْرَى

عماد مدانات

2021

نوافذ النص

ـ مسرّات حزينة 11
ـ شموس مطفأة 17
ـ غفران كالخطيئة 23
ـ حدائق الخراب 29
ـ خطوة في العماء 35
ـ بوابة الريح 43
ـ براري الألم 49
ـ عزلة وأنفاس أخرى 55
ـ ببهجة سأكذب علي 61
ـ قبلة في الظلام 73
ـ رثاء مؤجّل 79
ـ ولد رديء لكن خصاله طيبة 85
ـ سيمر الوقت كما لو أنه ينسى 91
ـ تشيخ الأرواح على مهل 99
ـ سينفذ الوقت 103
ـ أودع البيت بركلة على خاصرته 107
ـ لدي ما أعده لنومي الأخير 121

الإهداء

إلى....

ندي

ليث

زيدون

أقمارٌ مضيئة في مسيرة الأيام

فاتحة

«أكادُ أشطرُ أيّامي وأنشطرُ:
دَمي هُناكَ وَجِسْمي هَاهُنا ـ ورقٌ
يَجرّهُ في هَشيمِ العالمِ الشّرر»

أدونيس

مَسرّاتٌ حَزينة

لا شِفاء من العمـر
ولا مفرّ من الرّماد!

(1)

«هكَذا خَرِبْتُ»

لم أعدْ أصلحُ للحبّ وأحواله، كما لو أنّني باب مكسور، أو قبّعة سكنها الخراب، هكذا خربت!
الأمر عادي وبسيط،لا شيء يستحق أن تأخذه على محمل الجدّ سوى أثرك في التّراب، حين تسأل على لسان عجوز فقد الذّاكرة،ماذا بقي للرحلة الأخيرة؟ ولايجيبك أحد؛ لأنّك منذ البدء بلا قدم أو ذاكرة أو يدين!
يحدث أن ترمّم سقف الألم، وترشقك سهام مجهولة من أسفل قدميك، وتهرب إلى حضن بلا جسد يحتويك، ويأتيك صوت من العدم: أهذا أنت!

يحدث أن تكون سفرًا طويلًا، يحدث ألّا تكون حقيقة في المسرّات، وأن تكون مرآة لصورة أخرى، وأن تكون بلا رئتين، حين تقتحم البحر من جهة القلب، أن يكون لك قلب مالح، وحلم أبيض يشبه

قافلة بعيدة، وحبيبة بلا حاجبين، وغصن شجرة تقلّم أظافره كلّ ليلة كقطّ أليف، وساعة يد مشنوقة العقارب على ساعدك الأيسر، وقبعة سحريّة تخفي عنك صورة الحاضر، وشباك مفتوح يراك الناس فيه كدمية ضاحكة، وأنت تعالج شقوق الزّمن على جبينك بمرهم مجهول، وأن تكون حفنة جمر لا تنطفئ في برد الحبّ، فتلك معجزة مدبّرة، معلّقة في حبل سريّ كي تجفّ بأسرع وقت، ويخطفها غراب!

كل شيء تغيّر، أيّتها المرأة التي تبحث عن ماء في صدأ العروق، هذا ما يفعله الزّمن، ولم أعد أملك شيئًا طيّبًا كالشّجر، فقد تساقطتُ ورقة تلو الأخرى في حديقة العمر، وتآكلت كصخرة في مجاري السّيول، ولم أعد قصّة منقوشة على جدار أو أثرًا على حجر، كي أُقرأ بعين مدرّبة في كلّ حين.

(2)

هكَذا خَرِبْتُ،

أيّتها المرأة المعلّقة على خاصرة الأمل منديلًا أزرق، العالم أكبر من حفنة قلب موجوع، وذاكرة تشبه رمد العين، أكبر من خطوات التّعب المتداول كالأوجاع في طرقات العمر، والرّكض اللّعين على أطراف الخبز، ومرور الأيّام في قافلة الحلم.

لا شفاء من العمر،

ولا مَفّر من الرماد!

غير شواهد القبور التي تعرف خياناتنا المتكرّرة في بيوت العزاء! فدعيني للأبواق المثقوبة كي أنجو من الشِعر، دعيني للنّداء الأخير لأشبع من ضجيج اللّحظة، وقهر الانتظار قبل الرّحيل، وأجرد حلقي من أوتاره، لأرمّم صوتًا جرحه الإعصار ذات شتاء، لأجلك خبأت نصف الضّحكات، لأجلك سأحتمل اللّيل بوردة صبّار، وأمزّق باطن كفي كي أستعيد شقائي كلّ يوم.

شموسٌ مُطفأَة

مهملةٌ أظافري منذُ تلمّستُ وجهَكِ قبلَ عام!
وَنَسِيْتُ، كَأيِّ كائنٍ يَنسى:

نسيت أوّل مرّة كتبت فيها رسالة شوق، نسيت متى جرحت ذقني الصّغير، وكيف تأمّلت نقاط الدّم، وهي تروي ياقة القميص في الخفاء، وآخر مساء شربت فيه كأس نبيذ مع جمهرة الندامى وأعراس القمر، كرجل مقهور من الهمّ ركنت نفسي تحت درج البيت، وغفوت، حتى أنّني لا أذكر أحذية العابرين، أو ملامحهم وهم يبطئون في الهمس.

هل كان ينبغي أن أتذكّر الأصوات وما حولها!
ما جدوى أن تتذكّر، ثمّ تعود، وتنسى!
ما جدوى أن تغلق خلفك بوابات السّمع، والعالم يسير عبر خلاياك إلى النّبض!
ما جدوى السّهر، والكون آذان تشبه بحيرات الملح، وظلال السّفن قبل مغيب الشّمس!
حكماء نحن،
حكماء في تمرير الانكسار كعصا الضّرير، ندهن أحزاننا بالطّيب

والزّعفران كي نمرّ، ونكنس الخيبات بجدائل الوقار، وننسى ما عَلِق في أرواحنا من الهمّ!

يا سيّدتي،

جرّبت كثيرًا أن أغفو كالقطّة بين يدي العمر، وأن أكون شخصًا غير الذي تعرفين، له لحية كثمرة جوز الهند، وله ذراع طويلة، أطول من قصب السّكر وصفير الرّعاة في المدى، ومعدة تمارس مهامها في الهضم، والجريان كالماء، والصّراخ إذا اقتضى الأمر، لكنّها لا تورث نميمة مرّة، ولا تكترث بحموضة التّحسّر والظمأ وهيبة المواقيت.

الحمد للسّهر،
كان معطاءً كشلّال ماء ولم يبخل بالمزيد، وكان النّعيم مسترخيًا كالقرط، يتمدّد كهرّ أبيض بجواري، ولم أنتبه!

الحمدُ للانتباه،
فقد أفقت فجأة كالفطر في الأحراش، وشربت الشّموس بوقت قصير.

الحمد للفراغ،
فقد امتلأت من كلّ غريب!

خمسون عامًا، يا سيّدتي، وأنا أمارس الملل كصخرة في أعالي التّلال البعيدة، كثمرة ذابلة فوق شجرة وحيدة، وأُسحَق دُون أن يراني أحد، معزول كالشّتيمة، وملعون بجرب الخراف، حتّى ذلك العرّاف الضّرير الذي صادفته عند بائع القماش كذب عليّ، حين أخبرني أن أيّامي ساطعة كالبياض، وخطاي طويلة كظلّ مكنسة في الصّباح، فما زلت مصابًا بانحناء الصّبر، وخيبة الأيام، وغياب الرّيح في مفاصل الانتظار.

كما تنتهي الحكاية انتهى كلّ شيء، ولست مجبرًا على زيارة الطّبيب لتفقّد أسناني، ونبض القلب، فأقاليم الجسد مشبعة بالمتربّصين وعسس الجينات، والصّقيع استعدّ للمبيت منذ الصّباح، والنّعمة نسجت عباءاتها من صوف الأساطير، واستراحت كشهوة صيّاد جريح على سطح الماء!

مهملةٌ أظافري، منذُ تلمّستُ وجهَكِ قبلَ عامٍ،

واستطالت كلحية بوم عجوز، كان ينبغي أن أرتجف كغصن منذ اللّحظة الأولى، وأتدلّى في الفراش كالنّعاس، لكنّني نسيت كالمعتاد، ووزّعت ذاكرتي على العتمة وأتباعها المتقنين في الأدوار، وتركت للصّدمة مقاعدها تحت الجلد، تتكئ على الضّلوع كما تشاء، وتتمدّد

المخاوف كعناصر في مجاري الدم، فكوني يا سيّدتي على وفاق مع الطّمأنينة وراحة البال، فالرّجل الذي كان يحب السّهر ليكتب لك الشّعر، وقع في شباك النّدم وبلعه الغياب!

غُفرانٌ كالخَطيئة

الفطنةُ درسٌ أتقنَهُ الطّائرُ عندَ مصبِّ الماءِ!

كَمَوْتى،

ينسجون الحكمة تحت التّراب، كنت أفعل أشياء كثيرة، فيما مضى، ولم أندم!

مثلًا،

كنت بإبرة الخياطة أربط غيمتين وأعلّقهما بنجمة غافية، حتى إذا ما فطنت تشتبك في الارتباك، فأضحك كالعاصفة من شروري السّائحة على لوحة القماش، أجرّ حصانًا من أذنيه وأدخله في غرفة إنعاش للعناكب، أسحب الخيول من بطون الحكايات وأسقط فرسانها في وحل الطّريق، أجمع البنات من عشرين كتابًا وأربطهن من جدائلهن كالسّبايا في ساحة مشمسة، وأرقص حولهنّ كهنديّ أحمر!
مثلًا،

كنت أتغطّى بخيام البدو، وفي الفجر أشلع أوتادها وأهرب مع

الرّعاة، أنسى أنّي خارج من سيرة الحروب، فأعود لأنضمّ إلى جيوش «التّتار» أدهن وجهي بالدّم، وأرتدي قبّعة من جلد ذئب وأحارب في الظّلام، أرفع الكسل عن جثّة الفجر، وأركله بجمر القصائد المشتعلة، أدخل بومة المساء في المدخنة، وأشعل جثتي بالسّهر!

مثلًا،

كنت أخبر العجائز بقصص كاذبة عن أولاد بلا شفاه ضائعين في الجبال البعيدة، ونساء هجرن جدائلهنّ من قلّة الماء، وأهرب قبل أن تستفيق الدّهشة من عيونهنّ الذّابلة، ولا ألتفت ورائي!
مثلًا،
كنت أجرّد الإبل من سنامها، وأضع مكانه أقفاص حَمام، وأربط تمساحًا من فكّيه بملقط غسيل، وأدرّبه على سباق الخيل، وأهاجر إلى بلاد بعيدة دون حذاء وقبّعة، وأعود بعد سنين بلحيةٍ تشبه غيمة الشّتاء، تصلح لكنس الظّلال، وقصر النّظر، والأيّام المكدّسة في علب الوقت، وسيف يقطر صدأ على خاصرتي اليسرى من كثرة القهر، وعينين ترسلان البرق في لحظتين كما لو أنّهما شتاء طويل، وأجمع الرّجال من كلّ حدب وصوب لأحدّثهم عن أحوال كائنات عجيبة ستمرّ على القرى في اللّيالي المقمرة لتسرق النّوم من بطون الحبالى والعجائز والخراف، والغيلان التي تقصّ أسنانها

قبل العشاء في الكهوف البعيدة، وعن موتى ينسجون الحكمة تحت التّراب، كالدّود الأحمر في أرض تشرب جذور الأيّام من أعناقها، ومتعبين يزرعون شجر الحكايات كالنّمل في المساء من شدّة الهجر، ولا ينتظرون سهرًا من أحد!

مثلًا،

كنت أقود سربًا من الحساسين الفائضة عن حاجة الأغصان، ترتدي ذات الألوان والرّقصات والضّجيج، يظنّ بعضها بأنّه مازال حبيسًا في قفص، فيرتطم رأسها بالجدار وأفخاذ النّساء، ويسقط مغشيًّا عليه في أطباق الفاصولياء والصَدف الضّرير، وأخرى لبستها الحكمة وهي تهزّ أجنحتها فوق المنافض كي يتساقط ما خبأته من أحلامها عن أحوال السَّفَر، ونعمة الفضاء، فتثمل من كثرة التذكّر وتأخذ بالصّراخ!

وأخرى،

تودّ لو أنّها تشرب من ذات الكأس البيضاء التي دلقها الرّجل السّمين في معدته دفعة واحدة، ويعتصره الألم فوق المائدة، لتقوده امرأة مشمسة الكتفين بعد ذلك إلى الماء، تغسل وجهه بمناديل معطّرة، وتلكزه بإصبعها في الخاصرة نكاية بالوقار، فيما

توزعّ ابتساماتها بخفّة على الرّاقصين من حولها، ثمّ تعود به جثّة متأرجحة، وناقصة من القدمين أو المزاج! ثمّ أجلس وأنتظر قلِقًا، كمقاتل فقد رأيته ولم ينتبه! أو كمن يقترب من النّار وفي يده وردة بيضاء!
كلّ ذلك حدث،

نعم، حدث؛ لأنّي أبحث عن ملاذ أكثر اتّساعًا للصّدر، واحتمالًا للغفران، ولو أردت الدّخول إلى حفل صاخب بقدم واحدة، أو مقطوع الرّأس على طبق من خزف!

حَدائق الخراب

أشعرُ بالضّغينةِ تجاه جهةٍ ما!

هكذا دائِمًا،

أشعر بالضّغينة تجاه جهة ما!
أحاول أن أقتلع جذورها الغائرة، التي ترافقني كالقدر أينما حللت، وتتربّع في شرفة دماغي كوجع مشؤوم، ترتّب كلّ يوم مزاجها المعتاد بخفّة، وتغنّي نكاية بالوقت، والغضب المخبّأ في صدري! تُشعل ضوء الفنار قبل مغيب الشمس، وتطفئ فوانيس العالم من حولها،كما تطفئ جدّة سراج المساء! تلتفت إلى نوارسها على الشّاطئ، تجلس خلف الشّباك، تشرب خمرتها بهدوء، تقرأ من كتاب ما تيّسر عن سفر المكائد بعض الفصول، قبل أن تتخدر أطرافها، وتندلق على أطراف الجسد كورق الدّوالي المقطوع.

تشاركني نصف الشّموس، نصف الفِراش، نصف الحلم، نصف المطر، نصف الهواء، نصف حبيباتي وأقمارهنّ الباذخة، وتحلّ على كتفي كمطرٍ غريب، كعتمة ثقيلة.
أتساقط؛
فأمعن في الرّعشة والتّحسّب والسّؤال،

إذنْ، ثمّة من يكيد لي في الخفاء!

جهة ما غامضة،
باردة،
بلا قلب أو شفقة.

تحاول أن تعطّل خطواتي، وتدفع الضّوء من دربي حتّى ترتعش عيناي من خلف الزّجاج، لأسقط كالهارب من ظلّ قليل، وأنام كمطرود خارجَ جسدي لوقت طويل!

ليكن ..!

لا مشكلة لدي مع الظّلمة أبدًا!
فكثيرًا ما كنت أصطاد الفكرة من سُرّتها في العتمة، وأربطها بسلسلة الانتباه قرب السّرير، وأنام قرير الحُلم، ونصف عيني ترصد أصابع طريّة تشبه الموج في الخفاء، وأحيانًا كأجنحة نصف مطفأة، أو عيون ذئب في كهف بعيد، لكنها جارحة ومخيفة، فتنفلت اليقظة من عقالها، ويتناثر النّعاس كالتّبغ في ردهات المكان!
إذن، هو قاتل خفيف يدير اللّحظات كما تدار الخيوط بين أصابع محترفة، كالنّحل لا يتردّد في الإشارة من مؤخّرته إذا لزم الأمر، أو الاختباء في جورب مثقوب تحت السّرير، ينفث السّمّ بلا أنياب

ولا يرتبك!
جنيّ بلا ملامح، يمتهن الوهم، وحرفة الأمواج، وتحريك الأصابع باحتراف!

يوهم الغابات بأنّه حطّاب شرس كي يرعب الأشجار من جذورها، وتسقط في مطارحها يابسة، يوهم المتنزّهين في حدائق الله بأنّه ساحر المواقيت!
بضربة إصبع ونفخة قليلة من شفتيه يقلب المدن الغافية، ويرفع أقدام القطارات نحو السّماء ولا يرمش له جفن، يعرف عشرين خاطف أطفال في الجوار، يرتادون الخرائب، ويغمسون حبالهم بزيت الضّحايا، وماء وملح قبل الذبح؛ لأن الطّرائد الآدميّة أصبحت أكثر يباسًا من معدة فارغة، وأكثر قسوة من نظرات امرأة أخذوا حبيبها إلى الحرب قبل موعدهما بساعة واحدة!
فليكنْ،

فليكنْ انتظارًا مؤجّلًا إذن، ريثما أتكوّر كدبّور محاصر، وأتذكّر خطواتي القادمة!

سترق،
سترق لي فكرة المشيئة المحتّمة كحقيبة الظّهرِ في منحدر، حتّى ينزلق الظّلام كما الجريان في ماء الأرض!

خطوةٌ في العَماء

الممشى يضيقُ بي
ويدي تائهةٌ في الظّلام!

الممشى يضيق بي،
ويدي تائهة في الضّباب،
ليتركْني السّفلة،

لأظلّ وشأني، أعرف المسارات دون أن يشير لي أحد في الطّريق، أو يمتدّ أصبع نحوي كمخرز ينفذ إلى الشّريان، فالإشارات دليل غائب ودرب ضرير، خيالات غامضة على شجر بعيد، والأصابع غيمة مارقة على أجنحة سفر جديد!

قلت:

ـ يا أبي، دعني وشأني أو دُلّني.

لم يحفل!

قلت:

ـ رأيتُك تحرث الدّنيا وتستلقي على قفاك كحبّة رمل.

مضى بعيدًا،

وغاب ...

ثمّ غفوت،

ورأيتُني أعمى أتبع خطاك!

الممشى يضيق بي، ويدي تائهة في الضّباب
كمن يهذي، كأصابع جدّة تعرف مخابئها مددت يدي، وفتحت جارور الظّلام، وتناولت شمعة مطفأة، أو قمرًا واحدًا خلف الضّباب، ودفعت الطّريق أمامي، ومشيت بقدمين من تراب.

أجزّ عشب التّذكّر عن أصابعي، ولا أتلمّس شيئًا، ثمّة من يدوس على جثّتي كلّ ليلة، أبتعد عن السّرير إلى زاوية بعيدة قبل أن يأخذني التّعب، ينام السّرير ويشخر كغابة باردة، وفي الصّباح أجدني مسحوقًا تحت خزانة النّعاس! كأنّما صدري محشوّ بالملح، أشهق، فيفرّ من فمي سرب من الجنادب المسلّحة بهراوات دبقة كلسان كلب.

العالم ضيّق بما يكفي ليدّخرَني إلى رئة أخرى أكثر احتمالًا للتّذمّر من الهواء الفاسد، أو التّورّط بيد ثالثة للتّسكّع خارج الماء! هكذا كتب شاعر على قصاصة ورق نسيها على طاولة المقهى، ربّما كان يبحث عن فاتحة لقصيدة، وربّما كانت خلاصة حكاية أسقط كلماتها في حاوية الخطوات!

النّادل الوحيد في المقهى، اختصر اللّغز، وقال بيأس:
هكذا يقدّم لي البخشيش كلّ مساء قبل أن يرمي سيجارته المطفأة

ويمضي!

إذن،
ليتركْني السّفلة ويرحلوا بعيدًا،
ليقتلْهم الهمّ، وتبلعهم النّميمة،
ليسقطوا واحدًا واحدًا في خيوط العَدَم،
وتمرّ فوق جثثهم عربات النّسيان، وتمزّقهم ذئاب الأساطير،
ليشربْهم دمّ الضّحايا في مقابر الغزاة،
وتسكنْ في دمائهم أعشاش الخراب،
لتحترقْ ظلالهم ببخور النهايات،
لينطفئ الزّمن، ويؤجلْ موتهم إلى أجل بعيد!

عبر مسارات الحلم أجدني لافتة ممسوخة، رتّبها وجع عتيق ينبض كدقّات القلب في الشّريان، ينسجم مع الحال الكئيب، يلازمني كباطن قدمي بلا ضغائن، وأمضي غريبًا في الظّلام، بلا حقائب، بلا ضوء، بلا قدم، كسلّة قشّ عالقة في آخر قافلة تائهة في اليباب!
أحبّ الغموض وشؤونه في رسم الضّوء والعتمة على وجوه الأنبياء، والطّريق الذي يعود كلّ مرّة إلى نقطة البداية بين قدمي، أعشق غناء الرّفاق ساعة التّجلّي على موائد من تنك رديء، يطقطق كبرق مفاجئ، كلما اقتربت خمرتهم من النّفاذ، أو تساقطت كؤوسهم من القهر المباغت، وارتخاء الشفتين، ويأخذون بعّدِ أصابعهم في سلة

الفراغ بغير انتظام!

حينها، فقط، أرى النّدم والطّفولة تسيل من أحداقهم الواسعة وأبتهج، لخروجهم المترنح من ثقب الباب كخيط من دخان، لأنّهم أكثر ليونة من زينة الحدائق، وأصدق من دعاء مدهون برغوة التّمني، غير أنّهم يتامى في صحوة الفجر، مأسورين في عقال المسافة، وفتنة الوقت!

من كان منكم بلا لافتة، فليقدْني من رؤوس أصابعي، بخطوة واحدة من راحة البال، بغصن شجرة من حديقة النّدم، إلى حتفي نظيفًا من الهمّ وتبعاته، أو يجلب لي الرّيح على طبق من الاتّجاهات المشحونة بالرّموز ومخلّفات الحروب البائدة، ثمّ يصفعني بلا يد، ويمضي!

كان يفترض بي أن أتريّث قبل أن أرى الموتى يبنون قبور الأحياء هناك! أن أعجن الأساطير على صخرة الانتظار بلا ماء، أن أتذكّر قبل أن أوقعَكم في المكائد، وأبلغكم بصبر ودهاء، بأنّكم حزانى، كملامح الصّور المعلّقة، وأنا مثلكم حزين!
تشبهون الملح النّازل من الأصابع كطحالب مسمومة على رداء، وتمشون بلا أثر فوق الرّكام، وأنا ساقط في الثّرثرة كحفّار قبور يتقن الموعظة فوق العِظام!
كأنّكم ضباب أُطلق سراحه من قفص الشّتاء دون قصد، ببساطة؛

أبتعد عن درب الصّباح كي يمرّ عاريا من بين يديّ!

من كان منكم بلا اتّجاه،
فَلْيتبعِ اللّيل إلى قطب الشّمال أو أطراف القرى البعيدة،

لا فرق في الخطوات،
الموت ابن اللّحظة،
والحسرة عشيقة الرّثاء، كاتم الخطايا الملمومة دون انصهار، وحمّال الغموض على جسد حرباء، رفيق الطّغاة في المؤامرة، بهجة الصّعاليك في غنيمة الأوغاد، كانس النّهار من أوجاع الحصار!

بوّابةُ الرّيح

الرّيحُ مُشتهايَ الأَزَليّ

الرّيحُ مُشتهايَ الأَزليّ

هي صديقتي منذ خساراتي القديمة في العشق، والمشي إلى الصّدى، ترمي محاذيرها في الطّريق وأنتبه بعد فوات الأوان، غير أنّ في داخلي ولدًا شقيًّا يعشق نبش السّقوف من أساساتها، والانفلات السّريع، ككرة الشّوك في مهبّ الرّيح، حين تتساقط العناكب على كتفي، فأدرك حجم فجيعتي، وأرتعب!

لِتمُتْ هذي الذّاكرة، لتصفعها الكوابيس، وتمرّ فوق جثّتها عجلات المسوخ، لا حاجة لي بها لكثير من الوقت، فمن يحتاج أرشيفًا خائبًا بالفضائح والنّدم، فأنا على سبيل النّسيان أعضّ على أطراف المواقيت كي تهدأ في دمي، وتستكين كأغصان الخريف، ولا تنكشف عقاربها على المزيد، فأسقط في تداعيات النّدم حين أنتظر خبرًا في العادة يتأخر في الوصول، ويتعثّر كمشي العجائز أسفل الجدار، أو مرعوبًا من البرد كفأر مبعثر الأحشاء، أو جثّة في عشب الطّرقات، لكنّه يصل في آخر الأمر بعد الموعد بساعتين أو ليلتين ونهار!

مسحت الضّغينة بمنديل مطرّز، وخبّأته أسفل جدار،

قلت:
ـ لتكنْ هذه اللّعينة زادًا لدود الأرض، ووسخًا مطروحًا تحت القدمين.

ـ لتكنْ هبّةَ ريحٍ عابرةً لا تعود.

ـ لتكنْ كلّ شيءٍ سواها،
ومشيت..

لكنّ قطًّا هرمًا نبش التّراب، فانفرطت كحزمة جمر كَنستها الرّيح وتناثَرَت في المكان، احترقت أصابعي كفتيلة السّراج، ثمّ بكيت من شدّة الضّوء على ما تبقى من جسدي، لأنّ موتاي أعدّوا رحيلهم قبل قليل، ولم يتركوا كفنًا واحدًا لنومي الأخير!

لم يودّعْني أحد،
هربوا كالدّخان، واختبأت برئتي زمنًا!
كنت حينها أحبس أنفاسي على مرأى من الماء،
ولم ينتشلْني أحد!

تمنيّت لو أنّ وجهي فزّاعة حقل كي تهرب من صدري الظّنون الخائبة، لو ينسرب الماء من وجهي، وأغدو منحوتة في حديقة مهملة، أو نقشًا

في جدار بأُذن واسعة كهالة الصّباح.

لو تنقشع ملامحي ولا يراني أحد، حتى لو كنت أختبئ في جثّة ذئب على سبيل التّمويه ورسم السّراب! ومن غير قصد لَعِين أسمع ثرثرة النّاس والكائنات المتعبة في الجوار، وذكريات النّادمين على مقاعد الخشب، لأكتب سيرة أخرى للظّلال والعبث، والنّوافذ الغريقة بالحنين إلى الفضاء، والسّعال المُرّ أوّل المطر، وأمارس التّسكّع في الخيال بضمير طيّب كحبّة التّمر.

حينها،

لن أفضح الأسرار كما تفضح حقيبة النّقود أمام الباعة على رصيف، سأرتدي قبّعة زرقاء في العلن، وأصافح الكلام عبر مكبّرات صوت، وحين تسألني الفضائح عن مواعيد اللّيلة الفائتة، أتعثّر بقصد في اللّغة، كخطوات ضرير يمشي في غابة نائمة، وأخبرهم أنّ الأمس مضى بشؤونه الخائبة، فلا حاجة لذكريات اليوم!

بَراري الْأَلَم

أريدُ أنْ أكونَ منسيًّا كراهبٍ في بريّةِ الألم!

بيدٍ باردةٍ،

أخبّئ الهمس في جيوب المدى، أَربت على كتف النّغم الخفيّ، أصاحب الغيم وأقفال المطر، أمسح الوشوشات الخجولة في رداء القمر، أمضي وحيدًا إلى شجر يفيض بالنّعاس، أغفو خاليًا من كلّ همّ، كسوسنة محفورة في كتاب!

لرّبما،
أفرط في البكاء وأسفح الوجع القديم

لرّبما،
أخلع من جثّتي شغب الاكتراث، وحلم الولد اللّطيف

لرّبما،
أنسى من جديد خدوش أصابعي، وأدخل إلى حيث أريد من أصغر باب إلى عشب يديك وأنام!
فأنا لا أريد لأحد أن يشير إليّ أو يذّكرني هناك، وأُنسى في حقيبة السّفر، لا أريد الاقتراب من مكيدة في الطّريق تصطادني! أو أكون شاهدًا

بمتناول اليد في رواق المحكمة! أريد أن ينجو ردائي برائحتي، كما تنجو فريسة من سهم صياد، وأغفو في جيب الرّضا، وسترة السّكينة لزمن طويل، فلا جدوى من التّجربة مرارًا.

فقطْ،

أريد أن أكون منسيًّا كراهب في بريّة الألم، لكنّني أعرف كلّ شيء، أغتسل باستمرار دون ماء، وأجثو على التّراب كجذع مبتور، وأتلو مع الصّمت تراتيل العماء!

كثيرًا ما سددت لكمة الى الماضي وفقأت عيني !

كثيرًا ما غفوت، وأنا أنتظر ككرسي في عزاء

كثيرًا ما بكيت وحيدًا كغصن شجرة في الثلج

كثيرًا ما حلمت، ولكنّي، أفسد في اللّحظة الأخيرة كلّ شيء من قلّة التّرَيّث، وأهدم ما بنيت!

للنّدم قبضة موجعة،
وللفضائح أسرارُها،

ولي بيوت من شقاء!

لموت الأحلام فِراش من دخان،
لي رئة واحدة تكفي لإطفاء سبعين حريقًا،
ولهذا القلب يدٌ في كلّ ماء!

عُزْلةٌ وأنفاسٌ أُخَرى

الأرضُ فاجرةٌ والنّاسُ محضُ رَماد!

لا تحتاج إلى الكثير من الضّجر كي تصفع عزلتك، وتغرز في مفاصلها نوافذ من ورق تحيلك إلى فراغ كثير.

لا تحتاج إلى الكثير من الأنفاس كي يبرد فنجان قهوتك، ويغدو بين أصابعك كقلبٍ ميّت، أو تجد نفسك في ذات اللّحظة، منفيًّا بكلّ أحمالك على أريكة مسكونةٍ بتقلّبات المزاج وقشور الذّاكرة وغيوم التّأمل المطلق في البعيد، أو اندفاع العتمة أمام أصابعك وهي تمتدّ بحذر لقطف وردةٍ تتمايل بين ناظريك، لكنّها تضيع كالنّدى على ورق مشمس الأطراف!

ولا تحتاج إلى ملامح الأنبياء في القصائد المفترضة لأصدقاءٍ هجروا رخاوة الطّفولة في دروب القرى اليابسة كقرون الماعز، لمجرّد ظهور حبيباتٍ ملتهبةٍ على أطراف خدودهم، وقراءة كتاب ثوريّ حَرَثَ سكّانه الأرض بمعاول غامضة من الكلمات، نقلهم دون تردّدٍ إلى جناح التّمرّد على المقاسات والمشي المعتاد، بقارب من ورق الفكرة،

والمنشورات السّريّة، فاقترفوا بمحض إرادتهم الشّعر والتّأمل الطّويل وتداول المقولات الجاهزة بحذر طائر على مرمى الصّبيان، على سبيل اعتياد الهزائم وإتقان الصّدمات ولحن البلابل في حناجر الرّفاق، وهم ينشدون لمدن في العادة لا تجيء، ولقادة فقراء، قالوا كلاما ينسرب إلى المخيلة كالأحلام، ويجزّ أعشاب الشّرور بمناجل من تعب.

في هذا الوقت تمامًا،
فقط،
تحتاج إلى قليل من الظّلّ وإغماض الجفن، والكثير من رذاذ الظّهيرة، وهي تنزف لعابها على جانب العمود الفقريّ بقليل من التّريّث، وقُبّرةٌ واحدةٌ ضلّت طريقها في حقول الجسد، لكنّها تدلّك بالتّأكيد إلى بروج الرّيح بقلب الظّهيرة، ولا تعبأ بوجودك حينها، إن كنت غافيًا في الظّلّ أو ترسم ببولك شكل النّار!
أو ترسل نظراتك خلف سرب من اليمام الغريب، وقدماك تسير إلى غابةٍ بلا عشبٍ أو حارس شخصيّ، يحصي أعداد الرّيش المتساقط من بين أصابعك كلّ مساء، ويدوّن أرقامها على ورق الشّجر!

فتدرك بعد فوات الأوان أنّ الأرض فاجرة والنّاس محض رماد، والأحلام أكثر من أوجاع الجند، وهم يقلبون الذّاكرة بخريطة جسد مزّقته الخناجر، وحرثه الرّصاص، فتفتّش عن ذاكرة الوحشة كي

تنسى، فيأتيك الصّدى:

ـ لا تتعجّل، أيّها القطيع،كلّ شيءٍ معدّ منذ البدء كمائدةٍ من

ا

ل

نّ

ا

ر

يكفي،

يكفي، إذن،

أن تحتاج إلى القليل من الهواء الفاسد،

كي تجد الحجّة لنشر رئتيك في الشّمس كقميص مبلول،

وتطرد بعضًا من براغيث الذّاكرة إلى إبط امرأة،

نسجت بمحض الشّهوة ثوبًا مشقوقًا من طرف الخاصرة،

كي تتسرّب أصابعها أسفل سُرّتها، كلّما أخذتها نوبة شهيق في منتصف اللّيل أو تبعتها أحاديث الجارة ، عن وطن ينام فيه القمر كقطف عنب من اللّذة، وتشرق فيه الضّحكات قبل نهوض الهمّ من أحشاء الوسائد، ولا يُصفع فيه وجه امرأة لمجرّد وشايةٍ من عابر درب!

لكنّها تكتب بأسفٍ مُرّ على جدار القلب:

مَن فرشوا النّهار بغنائهم،
لم يتركوا إشارةً واحدةً تدلّ على
ا
ل
طّ
ر
ي
ق

«بِبهجَةٍ سَأكذِبُ عَليَّ»

أضيْءُ في المَدى ولا أَنْطفئُ كسرابٍ!

(1)

كنتُ أمرّرُ أصابعي على وسادة القصيدةِ كلَ مساءٍ،كمَن يختبرُ وترًا قبلَ النشيدِ، كنت أسمع وقع الخُطى بين خيوط مغسولة بالسّبات، وأصمت كمن يعزف لجنيّاته، فوق جناح عصفورة محنّطة على غصن تالف، كمن يختبر وقع المطر على وردة الجوري، وينتظر تصفيقًا من شجر يرتخي على منحدرٍ بعيد، ولا صوت في الفضاء غير ضجيج قلبك في الجنوب!

لم أملّ من النّدى الشّفيف واللّحن الخفيف، قبل أن ينفرط الاختبار بالذّوبان!
لم أمَلّ من الاحتمال، وإن كان يوجع خاصرتي بفكرة الخسارة الجارحة، وأنا أشبك أصابعي على صدري بخشوع كاهن هجرته الرّعية، وانتظرَ المعجزات.
منذ أكثر من عمر، أقف بين حافتين رخوتَين، أتشبّثُ بالتّراب، وأستدعي الصّبر بأغاني المتعبين، وأفترض ما أريد!

(2)

باردة هي الوسادة يا حبيبتي، كرسالة ضائعة في الطّريق، كقلب أكلته الوحشة واستكان، غريبة هي المواقيت ومُتعبة كالانتظار، كأَسرّة المرضى المصابة بالضّجر في الرّدهات، كنقطة مطر لم تزل معلّقةَ في الهواء، كخدّ سائق عربة يمرّ بين شجيرات الشّتاء تذكّر كوخه القديم، ثمّ بكى في الطّريق!

يا للأسف،
غدًا،
ستكتب سيرة أخرى للأخطاء الطّازجة، وتنضمّ إلى قافلة الألغاز في سفر الهلوسات!
غدًا،
سيأتي العارفون لتتبّع الأثر، ونبش الكلام.
غدًا،
سأتبع أحلامهم في المحجر الصّحيّ، وأتثاءب بلذّة الشّعراء، وأنا أرى الحطّابين يغرسون خيامهم في الجبال بحذر، كما لو أنّهم يزرعون القبور لقصائد العمر!

واأسفاه،

حتّى الزّمن لصّ خبير يتخفّى بعباءات الوقت، يغافلنا منذ الفجر بأخبار الألم، يقصف أعمارنا، ويضحك ملء البحر حين يعتلي قمّة الموج، ويطرحنا يتامى على الشطّ الغريب!
حتّى الزّغب الممدّد على صدر الكلمات يجرح اللّحن بأظافره نكاية بالغناء لو أراد!

(3)

ما أقسى أن تكون وحيدًا مع قنينة فارغة في المساء!
ما أقسى أن تكون موسيقى ساعة الدّفن!
وما أقسى أن تمارس الرّكض على أسوار مقبرة وحيدة!
ما «أرزل» الوحشة وأشباهها في الظلام!
كأنّك تتساقط مرّة واحدة بمحض إرادتك،
تنشقّ إلى نصفين،
وتبقى عالقًا في الحياة!

(4)

الوقت بوصلة حائرة،

طائر قديم فقد جناحيه على شجر الغياب، وأصابعي مسامير من تراب، وأنا موغل في مخيّلات العجب: سيرة الحروب، تقمّص السّرد الطّويل، نخوة القبائل، أسراب القطا حين يهجّ بين التّلال، أحوال

العدم في النبوءات!

غائبٌ في التّصديق والرّحيل على أكتاف الحكاية المطروحة في فوضى المجاز، وفوضى السّؤال، بلا أقدام، أرتّب وقتًا جديدًا للاختبار بأنفاسي، ومدّ النّظر إلى البعيد، أتهجّى ملامح الغيب، وأدقّ على صدر اليقين!

(5)

أغازل الضّوء بحروف اسمي، وأجرّه من أقاصي الضّباب إلى حدائق النّعناع المؤجل في صدري، مسرح الجدائل، مغسولًا من الانكسار، وخفايا الكائنات في جيوب الفضاء، كي أرتّب وقتا للمزاج الرّفيع، وأنقر على مؤخّرة الحزن بأصابع الغجر المارقين لوقت طويل، ثمّ أركل الحزن على قفاه!

وأدعو فيه الذّكريات وباعة الوقت وأصابعي، إلى وليمة أعشاب هاربة من حانات الضّوء إلى بواطن التّراب، مذاقها ماء بحر وحجر غريب، ودمع محارب في الأسر على جدار كهف عميق!

(6)

سوف أقلّم لساني من أشواكه،
كي نغتسل معًا بشعاع القمر الغارق في فضّته الباذخة،
وأعلّق يدي خلف ظهري نكاية بالأمثال العابرة في مآتم النّاس،
أقترب...،
كاتمًا أنفاسي في دمي،
وأشمّك مرّة واحدة،
كغريق خرج للتّوّ من الماء.

(7)

كطفل يعيد خطوطه، ورسم جنيّاته الصّغيرة على أطراف الينابيع، انتظرت وحيدًا كحلم عالق في فراش، ربّما كنت حنينًا غافيًا بين قوسين كذلك، أو عُشًّا لم يكتمل عشبه عند المساء.

ربّما،
غائبًا في مجاز اللّحظة، وإيقاعًا خفيفًا في صدر مغنّ على رصيف، بلا مجسّات ترشدني إلى نجمة واحدة في احتفال، بلا يد تجلب المسرّات!

(8)

الأمر بسيط للغاية،

سأعيد المحاولة في وقت آخر، بعيدًا عن المصادفات وأحوالها، ربّما ترتعش أصابعي كيدٍ عجوز ترتشف قهوتها الدّافئة، وأفرط جدائل اللّحظة كسنبلة في درب شحيح أو بقايا الظّلال أو فَرَاشة فاقدة للذّاكرة منذ ربيعين أو صدر يحتمل المشاهد المتكرّرة لزوبعة غبار تمتدّ في اليباب ولا تنقطع، في صفعات البروق الجارحة لرؤوس الجبال.

وربّما..
ربّما...
ربّما...

فكلّ الغياب ماء بعيد وأرق، ارتعاشة طائر قبل الرّحيل الأخير، وأنا عاشق له مشكلاته الكثيرة مع الدّنيا، يقتات على أرصفة خاوية من الغناء المرتفع وموسيقى الكلام، والأحلام المرتجفة كشرانق الأغصان، ويتقن حفظها في خوابي الانتظار!

(9)

ببهجة،

ببهجةٍ سأكذب عليّ، ولو بتصفيق قليل، بالحبق المعطّر بالتّراب أغتسل للاحتفال القادم، وأجيد الرّقص كطائر معافى بخطوات منتظمة كخطوات الجنود مع الفجر، سأدرب رؤوس أصابعي على لغة جديدة تحملني إلى وشاح عروس من قصب، أتماسك، وأمشي على مهل في ثنايا الخيوط!

(10)

لا أريد أن أُنسى كحقل معزول، لا أريد أن أفقد شيئًا كما لو كنت مستعجلًا في الصّعود، ولم أعبأ حتى لو كانت بقايا رائحة خلف ظهري، أو تعبًا بين يديّ.

لا أريد أن أتناثر كحقائب الغجر على الطّريق، وتخطفني سموم الرّياح،
ولا أريد لحاسد أن يجرّني إلى هزيمة، طالما ركضت بعكس اتجاهها كي أفيق، وأغفو من أوّل اللّيل مع جثّتي كسنجابِ حقلٍ بعيد، أمشي مع النّهر، وأعدّ غزلان الضّفاف بأصابعي، ثمّ أخطئ، وأعود من جديد، وأنسى ماذا أعدّ!

أريدُ....،

أريد للوسائد أن تحتويني ولو بيدٍ واحدة،
تلتصق بي، ولا تتركني معلّقًا على حافّة النّهار،
كشفةٍ ذابلة،
ولا خوف عليّ!

(11)

خذ مواجعي، يا صديقي،

خذ مواجعي، وانثرها في قائمة الرّماد على طرف الحكاية، خذ نصيبي من العمر، واترك بيدي طفولة النّسر في المقام كي تدلّني على حرير المعنى، والخفقة البريئة، واترك لجبيني إضاءة النّجم، وسنبلة واحدة أرتّب من جدائلها زمنًا للنّقاء يدرّبني على سطوح الغيم، وقمح الجبال وحمل القصيدة من شفاهها؛ كي أفزع كلّ مرّة من ملامحي حين تجرّني المرايا إلى شياطينها النّائمة، وظلال الخطايا حين أتذكّر أنّ جسدي من تراب، وأعود بحذر إليّ، بلا ضغينة أو حزن محمولًا على أصابع الغفران، أُضيءُ في المدى ولا أنطفئُ كسراب!

(12)

لست جسدًا لانفلات الوقت، يا صديقي، كي أتشظّى بارتياح، لست عباءة للضّجر والخوف وبرد المساءات، لمجرّد دمعة علقت بين شفتي، لمجرد ارتعاشة في جسدي الخفيف، وخفوت الصّهيل حين يشيخ.

هو الزّمن الأثير، وقداسة المعنى حين يتعَتّق في قعر السّنين، وبذخ الهطول في مواسم الشّجر، وأرق الأنبياء على المسكونة، حين تتكاثف الرؤى في الهزيع الأخير.

قُبَلَةٌ في الظّلام

وحيدًا، كشجرةٍ مصابةٍ بالجروحِ!

أفتقد أشياء كثيرة، كي أستعيد سقوطي في المعنى، في القصيدة، في الخطوات، في ارتكاب الحلم، فيما فاتني من اكتشاف تشظّي الأجساد الواهنة بفعل الهمّ، في عَدّ الأصابع مع أظافرها كلّ يوم وهي تتناقص واحدًا واحدًا بين أسنان النّدم، أعضّها وأصفع الجدار في الأسئلة التّائهة بين إجابات جاهزة الحماقة بمحض العماء في الكلام المشرّد على الأرصفة، في الدّوائر التي تعيدك زاحفًا إلى نقطة البدء، فتلقي باللّوم على خطواتك المرهقة وسيرها المتعاكس في الأماكن المزدحمة بالتّفاصيل الباردة،كلحية مجعّدة، وفي التّدريب البطيء على إدراك القبلة في الظّلام، وفي اعتياد الألم.

أفتقد أشياء كثيرة تذكّرني بالخيوط المبتورة في ماكنة الخياطة، والطّرف المجّعَد في قماش السّهر، والوجوه التي تتآكل ببطء حين أتذكّرها داخل الحلم في حقيبة المدرسة، فيختفي النّعاس والحلم والملامح، بعد دقائق فقط، من فنجان القهوة اللّاذع، وأنا أحاول التّذكّر على طرف نافذتي المقشّرة من ألوانها، ولم أنتبه!

ويحدث،

يحدث أن يستمرّ النّسيان إلى أمد طويل ولا يعود، لكنّني أجمع التّذكّر في سنارة العدم وأحاول من جديد..!
قبل عام،
كانت هنا،
على مرمى المخيلة، وتوابع المنام:
امرأة من سفر، كروح تائهة في خرائط التّعب!

هي آخر حبر سريّ على ورق الخريف في صدري، آخر ذاكرة في دماغي قبل أن يهجم التّتار، ويقتلعوا رأسي من مكانه، في آخر شتاء تركت لي رسالة على طرف السّرير، هكذا دون أيّ مقدمات أو تفسير، تخبرني بأنّها ضجرت من التّأفّف الذي يشبه ذبذبات الصّيف، وقلّة الحيلة، وإبقاء الأشياء على ماهي عليه باردة كمنارة شطّ معزول، غافية كغطاء متروك، ومن كلمات الحبّ التي لم تتغير منذ عصور، ولم ترفع يدًا واحدة لسقف مثقوب!

قالت:

ـ إنّها تحتاج إلى ملح آخر حتّى لو كان خارج الإناء، أو مُرًّا كسيرة العمر، أو طعامًا للضّرورة تملحه بيديها خارج مائدة الأيّام القديمة،

وأنّها ستبحر إلى عالم لا طرقات فيه، ولا وجوه مقفلة بالحِراب والتّشفي الرّخيص، ولا قصائد مقشّرة من أوراقها، ولا شجر متساقط في غير مواعيده كبنات الذّباب على جثّة الوقت، ولا حتّى بشر يجرجرون خيباتهم بالتّوارث والقسمة الظّالمة في مسيرة الحياة.

قالت:

ـ إنّها تريد عالما لا أسماء فيه، أو بيوتًا تطلّ أسطحها على سماءٍ كئيبة، لا أغاني مبحوحة كفاكهة مقشّرة، ولا ليل ينتهي بسعال ديك مشاكس في الجوار، أو جنرالات يوزّعون أكاذيبهم منذ الصّباح، تريد عالما يخلو من الكآبات، والجثث النّاطقة في الطّرقات!
وحين تراني المواجع في الطّريق تغيّرُ مساراتها بلمحة برق، وأمضي إلى ما أريد مغسولًا من الهمّ، كما لو أنّني بريء!
تْلاشت، كما لو أنّها أثر لبقايا حلم قديم،
وضعت إشارة في دفتر الأيام، وبقيتُ وحيدًا، كشجرة مصابة بالجروح!

رِثاءٌ مُؤَجّلٌ

رأيتُ يدًا تصافح ضدّها،
وشفةً تقبّلُ جبينَ قاتلِها في حُطام!

ما الذي تغيّر في زمن تكاثر فيه الخوف كدود المقابر، والماء المالح في الوجوه الخبيثة، واعتياد النّميمة في سهر النّاس!

أنا الشّاهد مع عبور الرّيح في آخر اللّيل، رأيت خوف الشّفاه يجمع لعثمة الحروف ويسقطها كفتات الطّين تحت القدمين، رأيت يدًا تصافح ضدّها، وشفة تقبّل جبين قاتلها في حطام، ورأيت أصابع تخدش جثّتها في زقاق، وترفع أجفانها لإحصاء مجاري الدّمع، وصبّها في جرار!

أنا الشّاهد،

ولم أمكث في مكان كي لا أتبدّد كالضّوء في الجبال، وأصاحب الشّتات، بل طرقت قدماي على عتبات الخيام ونفضت الغبار، شهادةً على حضور الألم ورداءة الحال.

درسٌ في متاهة العمر، يا وجع الطريق، هكذا أخبرني رجل حزين كان يصطاد الجثث من الرّمال، ويكدّسها كالأصداف في الخلاء.

في الدّرب الطويل...، همس في أُذني رجل ملتحٍ كان يقود ناقة باتّجاه الماء: الدّروب موحلة ولا مفرّ من اللّيل، كلّهمً عبروا ولم يصل أحد... رسمٌ في هباء!
ولوّح بيده في الريح،
كجناح غراب!

كحجرٍ،
في يد ولد مشاكس،
كسنبلةٍ،
معلّقة في جديلة غجريّة،

كنت تائهًا أبحث عن فراشة تدلّني على فسحة للسّماء،
لم أجدْ!
ولي عينان تشبهان ظلًّا في ماء قليل،
آه، كم يشبهني العماء!

ترى ماذا يفعل أولئك الذين ينتظرون حبيباتهم عند سقوط المطر، ماذا يفعل أولئك الحالمون غير إعادة ضبط النّبض والتّنفّس برئة

عصفور، ومصافحة الرّيح، وهي تمرّ مسرعة في خلاياهم، والتّخفّي بخجل خلف الشّجر، كالقطط الجائعة في الصّباح!
ماذا يتقن العشّاق غير البكاء على كل واردة، غير النّواح على كلّ رجفة غيم، والتّمنّي بيدين مفتوحتين على الفضاء!

ماذا يتقن الشّجر،
الغصن،
الورقة،
الظّلال في آخر الصّيف، غير العودة من جديد إلى حضن الجدار!
ماذا يفعل العشّاق في آخر اللّيل غير النّدم، ولملمة الحزن من أرصفة القطارات، وجلدها في القصائد وإخافة الكلمات وحشرها في تعويذة المجاز، هكذا لمجرّد أنّهم طغاة صغار في ساحة الكلام!

يريدون أن يصمت العالم،
أن يغلقوا البوّابات على أسرارهم،
ويخبّئوا المفتاح، ويدفنوا الأثر!

ها أنا،
وحيد،
كشجرة صنوبر بعيدة، نبتٌ غريبٌ هناك!

أردّد الأغنيات في روحي كي أخنق الصّدى الحزين ولا يعود، كي أصوغ لحنًا واحدًا ينسجم مع رعشة البرد في دمي، ورقّة الزّهر في شفتيك، وأنا أدفع برفق كتفيك للدّخول بخطوة متقنة في القدم اليمين إلى مقهى يتّسع للأشواق والغرباء والحالمين، ويحتمل الخسارات لو أطفئ الضّوء، أتهجّى أبجديّة الصّمت...، وأنتظر!

«ولدٌ رديءٌ لكنَّ خِصالَهُ طَيِّبةٌ»

جَوهرةٌ معلّقةٌ في رَقبةِ كلبٍ سائبٍ!

ـ ماذا أفعلُ يا أبي، وهذي مشيئتك!
وهذي المدينة التي دفعتني إليها بيد الرّجاء، وأنا أطعت، لكنّي سقطت بين جدرانها كعشب غريب، متسكّعًا وعالقًا في الفراغ بلا سبب، لا أحد يستظلّ بي، ولا أحد ينتظر من يدي إشارة، فالأصابع مجرّد أغصان تالفة في الفراغ، لا أحد يشُدّ سترة الظّلام من أحشائها في المساء، لا أحد يغنّي للرّعاة والنّجوم، ولا أحد يتفقّد التّلال بمجسّات العارفين، لا أحد يعدّ خطواته في المساء سواي!

لا ظلال بين يدي غير وجهك البدوي وأحلامك، وما تتمنّى لولد ضليع في اقتراف الهَبَل والتّلويح للقمر بمنديل من ورق، والتّأمّل في ألوان الوجود، وتأَويل الصّخب بما يشبه الأصباغ على حائط من تراب!

لا أملك شيئًا يا رجلًا سكنته العباءات والأمثال النّاصعة والعثرات، والرّضا الكثير بلا انقطاع كما التّراب الأسمر في حاكورة الدّار، بلا أسباب أو نكد يُكفِّر الحال!

يا أبي،

تمنّيت بعد عشرين عامًا أن يظلّ قميصي فاقدًا أزراره كالمعتاد، يدي مجرَّحة، والشّمس تأكل من جبهتي كلّ ظهيرة، وفي يدي رغيف، القنافذ العمياء هوايتي والسّنابل الصّفراء لي، الطّرقات السّاخنة لأقدامي العارية، ويدي لا تصافح الغرباء، لأنّ الطّرقات مقفلة بالرّماد حين علّمتني الحَذَر!

صدَقتَ،
صدقتَ يا أبي ..
فأنا ولد رديء، لكنّ خصالي طيّبة، جوهرة معلّقة في رقبة كلب سائب!

ولكن، لماذا دفعتَني إلى المتاهات وأحوالها، ولم تترك لي إشارة واحدة كي أعود قبل أن ألبس النّدم، ويخنقني السّؤال طيلة الأيّام، وأدرت ظهرك كالغريب ومضيت!

أين معجمك في الحكمة وارتداء الحَذَر، في اللحظة المناسبة؟ من يملك المدائن غير أسرارها؟ من يملك الأسرار غير سكّانها الأبرياء؟ من يرتّب التّعاليل في ساحة القمر، ويخيط أطراف الحكاية بمسلّة السّهر؟ من غيرك يسرج القنديل ولا ينام؟

مَن
ومَن
يا أبي،
أنا تائه وغريب في الرّدهات المطفأة، أسقط في الظّلال وأتسكّع كالنّائحات في الأحزان، ولا مفرّ من المشي في الطّريق، ولا سرّ في صدري سواك!

«سَيَمُرُّ الوقتُ كَما لوْ أنَّهُ يَنسى»

حتّى على سبيلِ التَّذكُّرِ البريْءِ أَنْسى منْ أَكونُ!

(1)

قلت: سيمرّ الوقت كعمود تراب في الخريف، سيمرّ ولن يتذكّر صنوبر الغابات متى أنبت الإبر فوق هامته العالية، ومتى استظلّت بأغصانه طيور السّفر، وفي أيّ موسم لبسه العري، ومتى يَبس وصار زوّادة للنّار، ولذّة الأصابع في طرد الألم.
سيمرّ الوقت، يمرّ النّهار عَجولًا، ولا أحد يلتفت إلى ارتعاشة البدن في زحمة الخوف، وهو يمضي إلى النّهايات.

(2)

إلى أين تفرّ الثّعالب من أوجرتها في الصّباح، إلى أين تهرب بنات الرّيح في آخر المواسم، والمدى صقيع يخبئ الطّرقات تحت إبطيه ويهبط إلى القرار، واللّيل محايد غشيم! من يُخرج الحكمة من مخابئها غير عارف الحكاية، وسارد الوقت في كلمات! من يخرج النّهار من غبار المصادفة إلى حبل اليقين، من يغنّي لموجوع أو يهرول نازلًا إلى أحلامه كرابح في

المنام، من يصفّق بيدين من تراب لتفرّ الزّنابق من ساعديه متّى أراد!

سيكون كافيًا لو خَلَطتُ الحكمة بورق الخريف، وتعطّرت، سيكون كافيًا لو غفوت في كهف الأساطير، ونسيت من أكون، حتّى على سبيل التّذكّر البريء أنسى من أكون !

لا جدوى من الاتّجاهات إذن، فامكثوا إن استطعتم في رماد البصيرة حتّى تشهق رياح الجنوب من جديد، وتعيد أسرارها للحياة!

(3)

قلتُ:

سيمرّ الوقت، وينسى الدّوريّ أعشاشه، وتنسى العاشقة أوجاعها من قهر الانتظار، وينسى التّلاميذ أسوار المدارس وصفحات النّميمة في أوّل اكتشاف للحياة، تسأم الزّوجات من حبل الغسيل، وتنتقل بوّابة البيت من جهة الشّرق إلى الشّمال، هكذا لأنّ المزاج استدار كزهرة الشّمس في ثانيتين!

سيمرّ الوقت كخطوة بين حافّتين، سيمرّ، وتشيخ الذّكريات كالأودية المهجورة، ونكبُر في الطّرقات كالشّجر الغريب، والذين صعدوا الجبال باكرًا ستقودهم عكّازاتهم باقتدار إلى سرير الرّاحة آسفين على الدّنيا الواسعة وأحوالها، غير آسفين على العمر الطّويل ومتاهاته

الموزّعة بين الشّكوك والانبهار، والسّقوط المريع في متاهة الزّمن!
حينَها،
سيبدو النّظر غيمة قاتمة في علبة كبريت، كمنديل منسيّ على الحبال، تمامًا كما لو كان خيمة بدويّ في رحلة مملّة بلا ماء!

(4)

إذن،
ما جدوى الرّكض ثمّ الانحناء كعشبة عالقة بين صخرتين!
التّعب ثمّ الانكفاء، النّكد المتوالي، وذبح الدّقائق بحراب الرّهبة، الحلم وتفسير الصّباح بشرور الغياب، الانتظار على حافة معلّقة فوق هاوية تطلّ على أرض مشتعلة، الخوف والغوص في بحور من أرق، البيت ورسم بواباته بأسماء الغائبين، الضّحك من قلّة النّاس عند الضّرورة، المطر المشبع بالهروب في الرّمل.
ما جدوى ذلك، وحقيبة الأيّام المهيّأة للرّحيل عند مدخل البيت أخفّ من ريشة ساقطة في تراب، ولم ينتبه أحد!

إذن،
فليتقنوا الغناء،
ويرفعوا النّقمة من حناجرهم،
بأصابع الابتهاج قبل الرّحيل!

(5)

على هذا النّحو وأكثر،
ستتحلّل الكلمات كجثث القطط، ويغادر شياطين الشّعر وديانهم بكامل غموضهم إلى صالات العرض في مدن أنيقة كثوب عروس، للدّخول في مزادات على معلّقات غافية في أكياس بخور، وخردوات تركتها الحروب، ومنحوتات صُقلت من حجر اليمن السّعيد، وزجاجات نبيذ معتّقة في دنان جاءت من خلف البحار.
حيث تُعلن المزادات كما تُعلن القصائد في الأسواق القديمة على الحروف ومكوّناتها، ومواقع الأثر، ولا بأس، لن يلتفت أحد إلى خطّ الرّقعة، وهو يتمطّى كالغيم في لافتات مزّقتها الرّيح، وسكنها الطّير، سكنها الخراب!
وحدهم قادة الشّرور من يتباهون بشعارات تمجّد الشّناعة والأقفال المغلقة كقبضة اليد.
أمّا الهزائم، فلها موطن واتّجاه، وللسّقوط وطنه اللّعين!

تستظلّ كالخيبة في القلب، وتغفو كعجائز منهكة الظّهر في الظّلال، عندما يُهزم المجد مرّات عديدة على جبين جنديّ عجوز، أمام بوّابات تحرس الشّجر الغريب، وتنبت أرصفة بين قارّات الأرض دون حاجة إلى فرسان محمّلين بالغضب والرّسائل السّريّة إلى قادة الجهات.

(6)

لا حاجة للخوف من الكمائن وتبعاتها، المفاتيح غائبة والأبواب مقفلة بالصّدأ، ولا حاجة للاكتشاف أكثر؛ السّخرية- فقط- أن تقف على قدميك كجملة باردة في رثاء، أو أغنية أعدّت للشّقاء لتنتظر خبرًا من جهةٍ ما، أيّ خبر حتى لو كان صهيلًا ممزّقًا في آخر التّلال!

(7)

لا تتعجلْ،
فالجيوش مشغولة بلملمة السّلام السّائل تحت الشّموس، وتعبئته بصناديق رصاص معطوب، ونزع الألغام من أنوفها على أطراف الحدود وبيعها في أسواق الخردوات بيد لا تعرف الشّفقة أو بؤس الحال!

مضى زمن الخوف من المكر، مضت الحيرة بجنودها الأتقياء، ولم يودّعها أحد، نَمْ قرير العين كالأغصان في أعالي الشّجر، لا تنتظر أحدًا! اللّيل طويل والأحلام تتدلّى من مؤخراتها كالخفافيش في الظّلام، فلا حاجة للانتباه!

(8)

نفد الوقت

نفد العناق نفد العمر

كذخيرة صدئة

ستصبح حبيبتي عجوزًا
وأغدو جملة صبر في عزاء!

«تَشيخُ الأَرواحُ عَلى مَهَلٍ»

حتّى العينُ تصبحُ حجرًا بعدَ زجاجِها القديم!

لن يثبت الورد على حال، قد يغدو بعد ساعتين باهتًا كورق التّبغ أو لونًا رماديًّا في زجاجة عطر، وقد يضيع مع الرّيح، ولن ينتبه أحد، هكذا بكلّ بساطة، حتّى العين تصبح حجرًا بعد زجاجها القديم، وتنقلب الأحوال إلى غيرها في رمشة عين، ويغترب الزّمن في رحلة العمر، يصير البيت وجعًا في الخاصرة، والرّقص قرفصة أسير في الظّلام!

ولأنّك ابن النّوايا الطّيّبة، ستغفو كثيرًا في ردهة الانتظار! تضجر من كثرة ما ادّخرت من الأنفاس، والتواء الكاحلين، ثمّ تنامُ ورقةَ خريفٍ لا تنتظر ماءً أو شموسًا أو سَهرًا مع أحد!

ما جدوى أن ينام الرّفاق،

واحدًا،
واحدًا،
وأنت تعدّ أنفاسهم،

كما لو أنّهم ماتوا قبل قليل!

ما جدوى الذّبول كالأغنية القديمة،
ما جدوى الكلمات المتعبة في حفل المساء،

ما جدوى السّهر،
الصّمت،
الذّاكرة،
النّعاس،
وكلّ ما حولك يمضي وأنت وحيد!

لا بأس،
لا بأس بالخريف لو أمَدّني بالرّثاء بعد حين،
لا بأس،

أسامحه،
لو فرش الدّرب قبل الرّحيل من أوّل النّهار،
أو ركلني إلى موسم جديد،
أو غيّر المسار!

«سيَنفدُ الوقتُ»

كَلغزٍ سَيمضي!

سينفدُ الوقت،
وأفرغ صدري من أوجاعه، وأمضي خفيفًا كجدول صغير، سينفد في وقت آخر كنبوءة مؤجّلة في كتاب قديم، ويقول العارفون: قدر!

سينفد الوقت،
كلغز سيمضي،
مُقلّمًا تفاصيله السّاخنة من أشواكها الجارحة، تاركًا للغرق فصولًا أخرى تدوّنها سيرة الطّوفان في الحبر العجيب.
سينفد،

ما عدا الحروب الهادئة في الجوار ستظلّ على حالها شيخًا في عباءته الثّقيلة، في لحظة ما ستتذكّر، وتنهض كما لو أنّها بدأت قبل قليل، ولن يوقفها أحد، والدّنيا تحتمل الألم من جديد كالأمّهات المتعبات من رطوبة العمر والضّجر، وإعادة الكلام المرّ لعابرات الطّريق.

ثمّ تشيخ الأحلام كالبلّوط في غابة النّسيان، تشيخ الأرواح في بيوتها على مهل، ولن يلتفت أحد، أقدامها معطّلة في سرير، مرتعشة

وعمياء، رخوة كمفاصل يد مصابة، هاربة، وبعيدة كالمواعيد التي لا تجيء، خائفة تسبح في فضاء بعيد، ولن يلتفت أحد!

«أودّع البيتَ بركلةٍ على خاصرتِه»

لتعمَّ الغبطةُ، ويرقصَ العدمُ!

(1)

أودّع البيت بركلة على خاصرته،

أحمل حقيبتي لأذهب في إجازة طويلة، باحثًا عن حرب في الجوار، أيّ حرب لا يهمّ، حتّى لو كانت بين ذئاب نافقة أو غربان مجنونة أو جنودٍ مجهولين!
لا يهمّ مع من أقف، أو أصافح، ملتفتًا إلى ما أريد في ترتيب الوقت، طاردًا من دمي انحيازه إلى نبع ماء في جدول الأيام.

(2)

الحروب تتكاثر كغيوم المساء، ولا مطر، فلا غرابة بالأمر، يكفي أن تكون شاهدًا مؤقّتًا، ليس بالضّرورة على هزيمة أو انتصار، أو ماء ينساب خفيفًا بين اليدين!
شاهدًا على القدر في إدارة الحياة، وارتطام الأرض بسكانها، وتمجيد الانكسار!

شاهدًا على النّسيان في ذاكرة الحياة، وفقدانها للبصر الضّرير!
شاهدًا على خطى البصيرة الغائبة في دفاتر الزّوال كعابر سبيل!
تائهًا غريبًا،
راجعًا من جديد إلى المقاعد الأولى في السّؤال!

(3)

أريد حربًا لا أكثر،

الرّابح فيها الزّمن، والخاسرون أبطالها الغائبون، ومَن اقتفى أثر الحكاية بعد عمر طويل، كلّما طالت أظافرها أحكّ رأسي وأتذكّر الخبز والنّاس والطّفولة، واقتحام اللّيل بغناء مرتعش رديء، طردًا للهواجس وإيهامًا للفضاء بالامتلاء، أصافح خدّي فَرِحًا بتكاثر البهجة في صدري كقاطع طريق ولا أرتعب!
حينها،

أتذكّر الشّبابيك المنزوعة من جدرانها ورثاء امرأة لرجال مكبّلين بحبل غسيل في حكايات تنقلها سيرة الأجيال، يساقون بلا مجد عبر الجبال البعيدة، حيث لا أحد يصل ولا خبر يعود، ولو في قصيدة واحدة، على سبيل الرّثاء والتّذكّر المرير، اعتادت المرأة على تكرار غنائه بصوت حزين، في الظّلال الوحيدة تحت جدار الأيام.

(4)

وأنا لا يعنيني غير ما أريد؛

أعيد سيرة المشّائين قبل الطّوفان، وأبحث عن سرير تحت شجرة وحيدة، أتمدّد فوقه باسترخاء وأشرب الفراغ، وكمن لا يعنيه الأمر، أحصي عدد الموتى وأعصر أسماءهم بين أصابعي، وأسكبها في زجاجات خمر، وألقيها في عرض النّسيان!
لن يأتي أحد لمحاسبتي على أخطائي في كتابة أسماء ذابلة فوق سرير تحت شجرة! ستمر الكارثة كنقش على جثّة سفينة غارقة، ولن يلتفت أحد إلى ذوبان حروف على جدار عتيق، أو في أحشاء زجاجة تائهة في غياهب البحر.

(5)

الموتى،
الموتى لا يحاسبون أحدًا،
فهم أكثر تسامحًا من الأحياء، وأكثر شفقة على قاتليهم في آخر الأمر!
إذن،
لتنم الطّمأنينة عارية كالغيمة في السرير،
ولتَقتصّ الفضائح من رماد العزلة بنار باردة،
وينتهي الأمر!

(6)

ليقتصّ الخوف من الرعاة حتّى يجفّ ريقهم، وليقتصّ الخجل من الفضائح في ساحة عامّة، ويرشو القضاة بجلسات راقصة في خيمة غجر مقمرة، لا تُطفأ، ولا تسقط حبالها حين تصطدم بها أقدام الغرباء، ورجال العسس المندسّين في خفاء البهجة المُدبِرة، والفوضى العذبة في أحشاء اللّذة!

لتعمّ الغبطة، ويرقص العدم

لتبتهج المفارقات، وتصطدم بفوضى البنات الحالمات قبل ترتيب جدائلهن في الصّباح، ليتأنقّ العَبَث بضحكته المخادعة، بأغانٍ عذبة لو أراد، بموائد خضراء تحت شموس حارقة، ولا يقاسمه أحد، لتكن المشيئة فاضحة، ولا يسترها أحد بيد من ورق!

(7)

الموتى،

الموتى أكثر معرفة في الأحوال، خبروا مفازات الأرض كذكور النّحل منذ الصّباح، أبرياء من سفالات الكائن واقتراف الشّرور، يحيكون ضحكاتهم وهم يديرون ظهورهم للحياة، بفطنة صانع الفخاخ في التّلال؛ لهذا غرسوا روائحهم تحت آباطهم بسريّة جذر يسري في أعشاب اللّذة الغافية، وفي الخزائن المغلّفة بعطر أنثوي، مخبأ

في كستناء البهجة، في مخيلة امرأة واحدة، تحلم ولا تنام!

موتى،

موتى بأثر طائش!
كقرن غزال طري،
يهادن الرّياح في بريّة واسعة

هكذا...
غرسوا الشّهيق في الغُرف المُعَدّة للضّوء الخافت
وتكاثروا في الخيال.

(8)

الموتى،

الموتى أكثر احتمالًا للصّبر، نقشوا ذكرياتهم على الجدران دون أن يلمحهم أحد من الأحياء، ثمّ مضوا غرباء في المواقيت، غبارًا في العدم، حكماء في ألم الطريق.
إذن،
ليتمددّ السّرير فوق جثّتي،
إذا رغب،

ونتقاسم الأصابع،
كعناكب مخادعة قبل أن ننام.

(9)

لا بأس،
سأترك العبث يلعب بأطراف شعري الطّويل، ويبعثر السّنوات الطّويلة في مساحة البياض، بغموض الأرقام سوف أُدير لعبة الطّفولة على أصابعي، بالمراوغة والتخفي أجيز لاهتراءات الجسد أن تتعافى بأحواض النّزهة في خلاء لطيف، حتّى ينبت لي شجرٌ ناصع بالفضّة الرّائقة، أحصده كلّ صباح عن وسائد الخدَر، وأبيعه قمرًا قمرًا في أسواق العمر، بلا ثمن إذا لزم الأمر، لجمع قطرة صغيرة من دمع البدايات البريئة، وأخبرهم بأن لا أحد يموت من الصّلع!
لا أحد ينكسر من كثرة الدّمع، ولا أحد تداهمه الشّيخوخة نتيجة الشّعر النّابت تحت الإبطين!

(10)

الخيانة،

الخيانة، فقط، هي من يقصّ أقاليم العمر إلى رقع مُعذّبة كأشهر السّنة، ويُقلّم أظافرها بمقصّات تالفة كمنقار طائر عجوز تسمّ البَدَن وتسرق الرّوح بخفّة، ولا تبالي!

(11)

أعتذر،

أعتذر انتقامًا،
لجهة ما،
لشيء ما،
لشخص ما، حتى لو كان بلا رأس أو أُذنين، تربطني به مواجع الحياة لا أكثر! ثم أعود محمّلًا بقلّة العطف والغفران، لمن مَرّ بخاطري ولم يمكث قليلًا على أريكة البال، على سبيل التّشفّي أو التّعزية، أو المؤازرة ولو بغمزة جارحة في الخفاء!

(12)

أسعى،
أسعى بقليل من الصّبر إلى السّقوط ولا يرفعني أحد، كفاكهة محنّطة على غصن هزّته ريح، أسقط، وأمتلئ بأرواح الأرض في السّقوط، أشرب ذبذبات الهواء كأذن هنديّ أحمر طرحه العطش في رحلة صيد. أترنح، وأطلب الأرواح بأسمائها أن تجيء، وأنتظر منفردًا كذئب جريح، وأسقط...، أسقط بالتّمام، ولا يسند جثّتي أحد..

أعانق التّراب بمحض إرادتي، وأمتدّ في غيبوبة غامضة طويلة، تضيع فيها الاتّجاهات، وتغفو فيها الخطوات على هواها كشجر رخو على

مرتفع، عندها فقط أدخل في الطّقس، وأغمض عينيّ على أمل الميلان بهدوء، كظلّ الصّباح:

أ

ت

ن

ا

ث

ر

(13)

ما فائدة أن تقف على قدمين طوال العام، مهيئتين للاندثار في أي لحظة لأنّهما ليستا من نحاس، أو من لحم مضيء، لكنّهما من حطب رخيص يتآكل بالسّوس الحقير، وخلايا النمل، وينطفئ كالرّماد!
ما فائدة أن تجلس على كرسيّ مسنود بالفراغ، أو حزمة من العميان بلا أذرع أو أصابع، لوقت طويل ولا يراك المبصرون!

كم هو بشع أن تظلّ عالقًا على كرسيّ بلا قلب من خشب، بلا رئتين أو قَدَم تدلّك على توازن بين هذا وذاك، كعين متجول يبيع وسائد لامرأتين مرّة واحدة!

ما جدوى كلّ هذا!

ما جدوى الخشب المعطّر في عزلة الخراب!
ما جدوى الانكسار مع قلبين من حجر!
وأنت كما أنت،
صخرة باردة فوق التّراب تمزّقها الرّيح، ويغمرها السّراب، لا أعداء لك في السّقوط سوى الكبرياء وما تحلم به في الخيال، ماذا بوسعك أن تفعل وأنت كلاعب سيرك مقطوع اليد، تسبح في خيوط تتهاوى، ولا حياد مع الفراغ ...

لا حياد!

(14)

لعبة مغرية،

ليس أنا من أدار عناصرها، يد غير معطّلة تختبر قدراتها في الامتداد كما تشاء، كأصابع من سراب،كيدِ مهرّج في سيرك لا يخجل من التّعري في خيمة مضاءة، كي يفضح الوقار أمام المتفرجين، كمن ينظر إلى جنازة رجل لا يعرفه، بكيت بعين ثالثة، كمن يرسم على ورق تالف، أَجّلت خراب الأثر،كمن يرتّب سرير العزلة بيد واحدة، أتقنت جمرة الصّبر من زمن بعيد، ومشطت شعر الغيم بأصابعي، ولم أبتلّ بالحنين، أدور في الظّلال كمن يصفّق بيد واحدة لموجة من الضّحك ولا يبتسم، أواجه اللّيل بالأحلام، وأقايضه بالسّهر، ثم أغفو كالقتيل.

(15)

يكفي أن أضع وسادة لأجرّ العوالم من أطرافها، وأوزّعها في مسارات النّوم كقلائد من خَرَز بين يدي القرى، وأدقّ إصبعي في عين اليقظة وأعلّقها كحرز على جدار، ولا يروق لي جفن كقاتل يبحث عن سبب للمقابر، أستحمّ بالأرق ولا أنام!
أتعطّر بأصابع مبهمة، حتّى لو كانت مقلّمة الأظافر، أو مطليّة بأصباغ رديئة:

يدٌ في الخفاء تدير موجة الألم،
يدٌ في العلن تملك قدرة العدم،
وأخرى ترشقني كحبر في الهباء!

(16)

ثمّة،

ثمّة من يملك نكهة مرّة في شراب المساء،
ثمّة من يدبّر رثائي في حفل كبير،
ويجيد خرابي بأنياب مفترس رديء،
شكرًا...،

شكرًا للاحتمال،
لو نفذتُ من التّجربة بخسارة عين واحدة،
أو ساعة واحدة من التّذكّر البعيد!

لَدَيَّ ما أَعُدُّهُ لِنومِيَ الأَخيرِ

سَأنامُ كَالذّبيحِ وَأحلمُ بالنّهارِ!

(1)

بالأمسِ،
قبل مغيب الشّمس بدمعة واحدة، رأيت رجلًا يجزّ العشب في حدائق النّاس، كان حزينًا، تائهًا كفكرة ضائعة، كنت مثله حزينًا، في رأسي شظايا زمن طويل، همس لي:
ـ أعطني حفنة من ذكرياتك لأجرح المعنى وأحرق وجه المدينة!
ـ حملت رأسي وهربت!
هربت قبل أن يتبعني الدّخان إلى مدن مجاورة، وخبّأت بكائي إلى حين!

(2)

سأنام،

سأنام يا «سلمى» على جثّة الرّماد، وأصحو في وقت آخر، ولن أخبر أحدًا أنّ خاصرتي لهب، وجبيني نهار، حتّى يأتي رجل آخر، يقف في زاوية الحقل، يحدّق في وجهي بتعب جذع قديم قبل أن يبوح بكلمة واحدة، ثمّ أمضي!

لديّ الآن ما يدرّب أصابعي على العبث بعيدًا عن المرايا القديمة، لديّ حدسي، لديّ ما أعدّه لنومي الأخير، وكيف أنجو من هواجسي الغليظة كحبل مشنقة عتيق!

لديّ ظلّ يعرف قامتي، لديّ خاتمة أحيكها قبل احتضار اللّغة على لساني في السّاعة الأخيرة، أقلُّها يا حبيبتي:

ـ أن أنحت صورتك برمش عيني على وتر القصيدة، لتولدَ منها أساطير الانتباه.
ـ أن أمنحك صدري نظيفًا من الشّهيق المُرّ، مضيئًا كأصابع طفل في الصّباح!

(3)

أرأيتِ يا حبيبتي،
أرأيت كيف اختلط الأمر،
حين جاء الغبار من أقاصي المدينة حاملًا معه رمد العين، وخفّة المسافات...، السّواقي تجرّ أحزانها إلى صريرها المعهود، والنّجمة التي تشبه أحلام الشّعراء ذبلت في طريق الغدر كالحرائق، والسّكّير الذي أصادفه كلّ مساءٍ عند مداخل الحارات، لم يعد باردًا وممزق اليدين كالجدران العتيقة، رأيته بالأمس يرتدي ربطة عنق بلون

البحر، ويتدلى من صدره قلادة تشبه زهرة «الزنزلخت»، كان يصنع كمنجات من فضّة اليدين، ويعزف موسيقى الرّاعي الوحيد تحت القمر، ويراقص الشّجر الغريب، بحزن امرأة فقدت بهجة العيد على قبر وحيد!

(4)

حتّى الرّعاة الذين نسجوا الفراغ بقمصان العزلة، تغيرت ملامحهم في براري العدم، خرافهم الشّقيّة بربطات عنق، وأحذية من عشب، ليلهم بلا سهر، بلا غناء تحت غيم الظّهيرة، بلا حصى يجرح مجسّات الصّباح، بلا ذئاب ترصد النّعاس، بلا دخان يفتح شهيّة التّائهين إلى الدّفء، بلا انتظار يقدّس الغيب!

(5)

ماذا تبقّى،

سأنام كالذّبيح وأحلم بالنّهار...،
على الأقلّ، سيعذرني الوشاة على مساحة الأمنيات، واتّساع القبر، وكميّة الهواء في رئتي المتعبة، ويكذبون على رجل يعدّ أحزانه في الجوار!

(6)

سلمى،

مازلت أشرب قهوتي، وأدخن بنهم قطّة جائعة، وأجفل كلّما رنّ جرس هاتفي، وأتذمّر من رداءة الطّقس بلا سبب، مازلت أرى جارتنا بنفس الملابس تنشر غسيلها الأبيض فوق السّطح بإتقان مسّاح الشّوارع، وجاري الذي يرتدي حذاءه الخفيف برؤوس أصابعه، مازال يطرح عليّ ذات السّؤال:

ـ هلْ مرّ بائع الغاز؟

ـ .....!

(7)

سلمى،

كلّما مددت قدمي أُسقط شيئًا من فوق الطّاولة، وكلّما اقتربت يدي لتناول دفتر الشّعر، يسبح في عامودي الفقريّ جيش من خدر، ويمتليء صدري بالأنين كحافلة على طريق الجنوب! يقتلني الشّعر، حين تتراقص كلماته بين دفاتري وغزالات الألم، يقتلني حين أدقّ على صدري ويفضحني النّدم، كلّ ما فيك قمر بعيد، وكلّ ما فيّ سراب!

(8)

سلمى،

تبًّا للتّفاصيل، كم تذكّرني بأكاذيب الحياة، وباعة الأوهام في دفتر الأيام والوجوه الشّائهة التي جمعتني بها صدف الحياة، وملأ أصحابُها ذاكرتي بالخراب! لم أشأ أن أظلّ نظيفًا كدفتر في حقيبة مدلّلة، ورضيت أن أكون سجّادة معلّقة على حائط الكلام، وامتلأتُ بالرّماد!

(9)

سلمى،
تبًّا للخجل ومداراته، كان خجلي الذي ورثته من شجر القرى لعينًا، أتقنته بلا سبب! أستحقّ أن تجرّني الأحزان إلى وكرها كذئب جريح، أستحقّ صفع الحياة في المؤخّرة بلا ندم، أستحقّ أن أكون بلا أصدقاء خجولين كبنات القرى، مطعونًا بنميمة السّهر واحتفالات الوشاية! لا أشكو من ارتعاشة في نبضات القلب أو الضّمير المتعب في علب الخراب، لكنّ أنين روحي قديم، منذ وضعت يدي على خدّي أوّل مرّة، أمام دمعة سقطت على ثوب المساء، وتركتها بلا أسف!

(10)

سلمى،
لم أقل: تعالي.

أنا ذهبت بكامل لوعتي، حينها، فقط، شِختُ في هنيهه، وتبعني البكاء خمسين عامًا في التّعب!

جريحةٌ روحي يا سلمى، وهي تجرّ أحزانها كلّ يوم، كمدخنة في صبيحة العيد، تهزّ أكتافها باطمئنان راقصة في احتفال هاديء، وأشقى في ابتلاع التّذكّر الكثير، ببسالة قاتلٍ أعدُّ الجراح وأستريح!

(11)

سلمى،

أنا ولد كبير، مسح عن قدميه خرائط الأيام، وعاد من جديد يعُدّ الثّآليل، يعُدّ الذّكريات وأغصان الشّجر، ويرتّب الأبراج على هواه! لي خفقة قلب في دروب الشّمال، لي ضحكة في مسير البنات، لي همسة في شجر الجنوب، لي نزق الذين هربت حبيباتهم بعد الغياب، ولي جسد من حطام!

تنازعتني الرّيح ياحبيبتي، وغفوت مع غيم التّلال، أن أكون مع الرّعاة في شرب الفراغ، أو عشبًا في إبط الجبل، أطارد الأغنيات في حناجرها، وأنبش المخابئ في سلال القصب، وأقصّ على الصّخور حكايات التّعب!

مزّقتني السّنون يا حبيبتي، وأنا أبحث في السّراب، عن وردة تغفو على أصابعي بحفل المساء، ولم أجد!

(12)

سلمى،

همسةٌ واحدةٌ تكفي يا حَبيبتي،
أتجدّدُ كما لو كنتُ بذرةً في تُراب!

صدر للمؤلف:

ـ رائحة الطين/ مجموعة قصصية، دار أزمنة، 1994.
ـ جسد ومسافات كثيرة/ قصص، دار أزمنة، عمّان، 1999.
ـ حنو البير/ رواية، .... 2007.
ـ دونما ندم/ شعر.....، 2019.

للاطلاع على قائمة منشورات وأخبار الوزارة
يُرجى زيارة العناوين التالية :

موقع وزارة الثقافة الإلكتروني
www.culture.gov.jo

رابط صفحة وزارة الثقافة على الفيس بوك
www.facebook.com/culture.gov.jo

عماد مدانات

عُزْلَةٌ وَأَنْفاسٌ أُخْرَى

خمس سلاسل للنشر، متطورة وعصرية، تطلقها وزارة الثقافة الأردنية، تسد النقص في المكتبة المحلية والعربية، منشورات مهمة في حقول معرفية مختلفة، جاءت سلسلة فكر ومعرفة التي تسعى إلى خلق الوعي والإدراك وتنمية التفكير وفهم الحقائق وسياقات التاريخ والحياة، وتفسير النتائج والتجربة الإنسانية، وخلق التأمل الفلسفي ضمن آليات المنطق والتحليل العلمي. وسلسلة الفلسفة للشباب بهدف تشجيع الأجيال الجديدة للإفادة من مناهج الفلسفة في فهم العالم المعاصر، وتوعية الرأي العام بأهمية الفلسفة، واستخدامها نقديا لمعالجة طروحات العولمة وعصر الحداثة. وسلسلة الكتاب الأول التي تُعنى بنشر الكتاب الأول للمؤلفين؛ كباكورة لأعمالهم المستقبلية، مع مراعاة الإبداعية والشروط الكتابية الناضجة. وسلسلة سرد وشعر التي تُعنى بالكتابات الشعرية والسردية المهمة، المغايرة والمختلفة في الطرح والشكل، ذات الجودة والمكانة في تحقيق إضافة نوعية للمكتبة المحلية والعربية. وسلسلة شغف، تختص بالمخطوطات الموجهة للطفل، شعراً ونثراً، تراعي حاجات الطفل الفكرية والنفسية والوجدانية، وتحقق شروطها الفنية والجمالية والإبداعية.

لوحة الغلاف

الفنانة الأردنية منى عمارين

9789957947521

هاتف: 9625696218 + فاكس: 9625691640 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

الكتاب متوفر على منصة الكتبا الإلكترونية
https://alkutba.gov.jo